

الدراسات النصية في الجهود اللغوية العربية

Text Studies in the Arabic Linguistic efforts

درويش حياة*¹ ، ملياني محمد²¹ جامعة أحمد بن بلة- وهران /1 الجزائر، derouichehayet90@gmail.com² جامعة أحمد بن بلة- وهران /1 الجزائر، medmel1992@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/06/01 تاريخ القبول: 2022/09/23 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

تناولت في هذه الورقة البحثية أهم الاسهامات اللغوية العربية خلال القرن الخامس للهجرة وما بعده، لأنها تمثل البداية الحاسمة للدراسات اللسانية النصية العربية.

فحاولت أن أقف على جهود علماء أجلاء أمثال الباقلاني (ت403 هـ) صاحب كتاب "إعجاز القرآن" والقاضي عبد الجبار (ت415هـ) صاحب كتاب "المغني في أبواب التوحيد والعدل". وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) صاحب كتاب "أسرار البلاغة." و "دلائل الاعجاز.

والغالب على هؤلاء جميعا أنهم وقفوا من الدرس البلاغي موقف المجدد، حين اعتبروا المزية في نظم الكلام لا تتعلق باللفظ مفردا ولا بالمعنى في ذاتها، وإنما الفصاحة في تآلف الألفاظ لمعانيها حيث يمكن للمتكلم والسامع أن يرتقيا بفضل بديع التركيب إلى مدارك الاعجاز في المعاني.

كلمات مفتاحية: لسنيات عربية- نص - بلاغة- نحو- نظم- كلام.

Abstract:

In this research paper, I dealt with the most important Arabic linguistic contributions during the fifth century AH and beyond, it represents the crucial beginning of Arabic textual linguistic studies.

So I tried to study the efforts of eminent scholars like Al-Baqlani (d. 403 A.H.), author of the book "The Miracle of the Qur'an", KADI Abdul-Jabbar (d. 415 AH), the author of the book "Al-mughnī fī abwāb al-tawhīd wa-l-

¹ المؤلف المرسل : درويش حياة

'adl", Abd al-Qaḥer al-Jarjani (d. 471 AH), the author of the books "Asrar al-Balaghah" and "Dalā'il al-i'jāz".

Most of all of them studied the rhetorical lesson from the renewal position, When they considered the advantage in the systems of speech not related to the singular word or to the meaning in itself, rather, eloquence is in the combination of words and their meanings, whereby the speaker and the listener can advance to the realization of al-I'Jaz of meanings, thanks to a wonderful composition.

Keywords: Arabic linguistics - Text - Rhetoric – Grammar- Systems- Speech.

1. مقدمة :

كان نزول القرآن الكريم بالعربية الفصحى أهم حدث في مراحل تطورها، فقد وحد لهجاتها المختلفة في لغة فصيحة واحدة قائمة في الأساس على لهجة قريش، وأضاف إلى معجمها الفاظا كثيرة، وأعطى لألفاظ أخرى دلالات جديدة، كما ارتقى ببلاغة التراكيب العربية، لكنها عرفت نوعا من الفساد على ألسنة العجم من الفرس والروم تمثل في اللحن، وخوفا من انتشاره بين العامة والخاصة نشأت دراسة اللغة العربية الفصحى على يد أبي الأسود الذؤلي (67هـ) واضع علامات الاعراب ومؤسس علم النحو، ثم جاء بعده ثلة من المهتمين بهذا الميدان إلى أن أكمل أبوبه الخليل بن أحمد الفراهيدي (165هـ) وأخذ عن الخليل تلميذه سيويه (180هـ) الذي أكثر من التفاريع ووضع الأدلة والشواهد من كلام العرب لقواعد النحو والصرف والبلاغة ضمنها كتابه "الكتاب"، كما نلمس عند المبرد (210هـ - 285هـ) الكثير من الاجتهادات في علم المعاني من خلال كتابه "المقتضب"، فقد ذكر فيه الحذف وغايته وحدوده، وتحدث عن ظاهرة الزيادة وركز على زيادة الحروف ودورها في تأكيد المعنى، وتناول بعض الأساليب وخروجها عن أصل معناها كالاستفهام والتقديم والتأخير وربط غاياته بعناية المتكلم بطرف من أطراف الجملة، وتدارس مبحث الخبر للجملة الاسمية، فأوضح أهميته البلاغية أكثر من النحوية لتعلقه بالنظم.

ولقد أولى الجاحظ (100- 150هـ - ت 255هـ) الدرس البلاغي اهتماما كبيرا، جاء في كتابه الشهير "البيان والتبيين"، والذي تناول فيه اللفظ والمعنى وعلاقة المشاكلة التي تربط بينهما، والملفوظ (بنية

النص وخصائصه النحوية والبلاغية العامة) والتلفظ (المقام أو الموضوع). واهتم بالمجاز وبالخصوص الاستعارة والتشبيه بمختلف أنواعها، وسيقتفي جل البلاغيين أثره من بعده.

وتوالى الدراسات والبحوث حول اللغة العربية، وتعددت بتعدد علماءها وتخصصاتها، والتفت حول بعضها وتداخلت إلى حد يصعب الفصل بينها. ولم تكن لغرض غير خدمة اللغة العربية والاهتمام وبنشرها وشعرها من جانب والكشف عن أسرار الإعجاز والبيان في نص القرآن الكريم من جهة أخرى، والملاحظ أن هذه البحوث الأولية لم تنف أي طرف من اطراف الحدث الكلامي في تحليلاتها فهي تجمع بين المتكلم، والمخاطب والكلام والسياق وأدوات الربط اللغوية والنحوية منها والدلالية، ومن هنا يتضح لنا أن علماء اللغة العربية الأوائل قد نهجوا سبلا تحليلية سليمة مبنية على رؤية شاملة تتوافر فيها كل عناصر الدراسة اللسانية النصية الحديثة.

ومنه نخلص إلى جملة من التساؤلات، تستوجب علينا البحث فيها والإجابة عنها أهمها:

ماهي لسانيات النص؟ وماهي الاسهامات اللسانية العربية التي أسست لهذا التوجه المعرفي؟

أولا: مفهوم لسانيات النص:

تعتبر لسانيات النص اتجاها جديدا في الدراسات اللسانية الحديثة تتخذ من النص محورا للتحليل اللساني، وتعتمد جملة من المفاهيم في تحليلاتها. كالسبك (cohesion) و الحبك (coherence) والقصد (intentionality) و التناص (intertextualite) و القبول (acceptability) و الإعلامية (informatirity) و المقامية (situationality) و كلها معايير تمتاز بالعلمية و الموضوعية في الدراسة، لأنها تنبثق من الموضوع (النص) وتشكل المنهج (النصية)، أي أن المعايير من جنس موضوع لسانيات النص و مادته، و هذا شكل من اشكال التفاعل المعرفي بين المنهج و النص "فالنص يحكم على المنهج بالانفتاح و الحركية و الاستجابة الموضوعية له. وفي ذلك أيضا إثبات لسيادة النص وهيمنته على منهج القارئ، وأداة القراءة، ومصطلح الوصف، والتفسير."

ولم تكن لسانيات النص قاصرة على العالم الغربي فقط، بل دخلت كل فروع المعرفة في العلوم العربية والإسلامية، فعلم النحو، نظر في العلاقات والروابط بين الكلمات، للوقوف على بنية الكلام ونظمه. وقد استعان به علماء التفسير في ضبط مقاصد النص، فإذا غابت العلاقات والروابط تفكك النص وساده الغموض والاضطراب ولعل نظرية النظم أقرب مفاهيم النص إلى علم لسانيات النص التي أرسى معالمها وبسط قواعدها عبد القاهر الجرجاني ونفذ بها إلى صميم الظاهرة النصية، وذلك من خلال توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله³ وأن " ترتب المعاني أولاً في نفسك ثم تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك " ⁴ و استعمل سيبويه "الكلام" كوحدة إعلامية تبليغية بين متكلم و مخاطب، فالكلام المستغنى عنه بالسكوت هو الذي يحقق الفائدة و به يحصل المعنى: "و يوضح العوامل التي حملت الناطقين بالعربية على التوسع و الاتساع (في الكلام) و أغلبها يكمن في الحذف و بأنها هي طلب الخفة على اللسان و اتساع الكلام والاختصار رابطا كل ذلك بعلم "المخاطب" ⁵ متحدثاً عن الحذف بجميع أنواعه مثل حذف الاسم سواء أكان مضافاً أم مضافاً إليه، حذف المبتدأ و الخبر سواء أكان للإغراء أو التحذير أو التعجب مراعيًا. في ذلك. التخفيف على اللسان و وجود القرينة التي نجدها في علم المخاطب." ⁶

كما لعلم البلاغة دور في تحليل النصوص، لأن "كل مفردات هذا العلم في صميم علم تحليل النص، ابتداءً من مقدمة الفصاحة والبلاغة وانتهاءً باصغر فن بديعي، كل هذا وسائل وأدوات تعين على استكشاف جوهر النص... واعلم أن كل نظر في المباني لا غاية له إلا النفاذ إلى المعاني" ⁷ فعلوم الآلة ما هي إلا كفاءات وأحوال يراد بها تحليل النصوص والكشف عن معانيها التي تحملها وعوالمها الخفية فيها، كالبلاغة القرآنية التي تمثل أسمى المسالك إلى المقاصد. و " البيان " من المفاهيم البلاغية التي شاع استعمالها عند العرب القدامى وهو كل ما من شأنه أن

³. عبد القاهر الجرجاني. 1969م. ص403.

⁴. المؤلف السابق. ص405.

⁵. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر - سيبويه-. 1966م. ص74.

⁶. د. بشير ابرير. 2007م. ص91.

⁷. محمد محمد أبو موسى. 1422هـ - 2012م. ص: 15.

يحقق التبليغ بما يشمل من فهم وإفهام⁸ ويكون بذلك أقرب من مفهوم النص في العصر الحديث. وقد ساهم في نقل الثقافة العربية الإسلامية من المشافهة والرواية إلى الكتابة والتدوين كما دعا إليه الجاحظ في كتابيه: الحيوان والبيان والتبيين. وللإمام الشافعي (ت 204هـ) تميز وأصالة في دراسة البيان العربي نظرا لمعرفته الدقيقة باللغة العربية وعلومها. فقد كان فقيها منشغلا بقضايا التشريع وما يحتاجه من وضع الضوابط والقوانين المختلفة ولذلك تجاوز اهتمامه البحث عن البيان في وجهه البلاغي إلى الاهتمام بالمضامين التشريعية في الخطاب القرآني، وبكيفية استخلاص هذه المضامين واستنباطها وكان بذلك أول واضع لقوانين تفسير الخطاب البياني ومن ثم المشروع الأكبر للعقل العربي.⁹ وبهذا يكون عمل الشافعي في إطار النص القرآني من باب الاحتكام إلى وسائل الضبط في علم الأصول وتحديد مكانة النص في أصول الفقه. وفي مجال النقد نقف عند الناقد العربي حازم القرطاجني (ت 684هـ) صاحب نظرية " التماسك النصي" والتي ركز فيها على علاقة المعاني بالمباني، والإيقاع الشعري وعلاقته بالغرض والحالة النفسية للشاعر، وقد استطاع أن يصوغ نظرية متكاملة متماسكة، لتحليل النص الشعري أساسا والنصوص الثرية

فالنص عنده لا تتحقق نصيته إلا إذا توافر على الشروط التالية:

1. أن تكون معاني النص متألفة بمبانيها.
2. وأن تكون المعاني والمباني مناسبة لغرض الشاعر من نصه.
3. وأن يكون الغرض من النص مناسبا لإيقاعه الشعري.
4. وأن يكون تركيب النص متباين النسيج حسن الاطراد

وبهذا يكون النص وحدة متسقة منسجمة. تحقق للقارئ حلاوة المسموع بحلاوة المفهوم. إن ما قدمه حازم القرطاجني من جهود في النظرية اللسانية العربية جلييلة القدر، عظيمة المكانة تزخر بها ثقافة الناقد العربي و الثقافة العربية العامة، وإن مؤلفه "منهاج البلغاء و سراج الأدباء" على رأس المؤلفات البلاغية التي استطاعت أن تمزج بين البلاغة اليونانية و العربية، و إنه لخير كتاب في

⁸. د. بشير إبرير. ص 91.

⁹. عايد الجابري. ص 22.

وإن لمفهوم المناسبة بين الآيات القرآنية الكريمة علاقة وطيدة بما يعرف اليوم بـ "نحو النص" و هو علم جليل استعان به المفسرون لنص القرآن الكريم في دراسة التماسك و الانسجام و التوافق الشكلي و الدلالي بين آيات القرآن. وقد قال عنه الإمام الزركشي (745هـ - 794هـ) "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء".¹⁰ ومن المؤكد أن النص القرآني عرف عناية كبيرة في مجال التفسير والتأويل والبحث المفصل باهتمام الكثير من علماء الفقه والأصول والتفسير والبلاغة والنحو وعلوم القرآن الكريم، مما نتج عن ذلك جملة من الآليات والوسائل التي تحيط بالنص الكريم من جوانبه المتعددة، فتستكشف معاييره الدلالية وجوانبه الجمالية وعلاقاته الكلية. فتتج عنها علم أقل ما يقال عنه "علم لسانيات النص وتحليل الخطاب القرآني" بلسان عربي مبين. وهو صالح لأن يستخرج منه نموذج تحليلي لساني نصي، ويمتيز عن اللسانيات النصية الغربية، لكونه تحليل لخطاب رباني متعال يحمل وحيًا وإعجازًا وقدسيتها النص المتعبد به بكل مزاياه وخصائصه الدينية واللغوية. غير الخطاب البشري القابل للخطأ والصواب والبعيد والقريب من نصيته ومعاييرته التي تثبت كينونته ووجوده داخل قيود الزمان والمكان والظروف والمحيطه به.

ثانياً: الجهود العربية اللسانية النصية خلال القرن الخامس للهجرة وما بعده:

يعتبر القرن الخامس للهجرة و ما بعده بداية حاسمة للدراسات النصية التي تزامنت مع ظهور علماء أجلاء أمثال الباقلاني (ت 403هـ) صاحب كتاب "إعجاز القرآن" و القاضي عبد الجبار (ت 415هـ) صاحب كتاب "المغني في أبواب التوحيد و العدل" و عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) صاحب كتاب "أسرار البلاغة" و "دلائل الإعجاز" و السكاكي (555هـ - 626هـ) صاحب كتاب "مفتاح العلوم".

والغالب على هؤلاء جميعاً أنهم وقفوا من الدرس البلاغي موقف المجدد، حين اعتبروا المزية في نظم الكلام لا تتعلق باللفظ مفرداً و لا بالمعنى في ذاتها، وإنما الفصاحة في تألف الألفاظ لمعانيها حيث يمكن للمتكلم و السامع أن يرتقيا بفضل بديع التركيب إلى مدراك الإعجاز في المعاني.

أ. اجتهادات الباقلاني في الاعجاز القرآني:

¹⁰. بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي. 1376هـ - 1957م. ص 36.

إن اهتمام علماء العرب بالدراسات الإعجازية ضرب من الكشف عن خبايا نصية متميزة في النص القرآني، وذلك من خلال اعتبار الآية إطارا للتحليل بدلا من الجملة والبحث في وسائل التماسك النصي الكلي، معتمدين في ذلك على رصد علاقات الترابط والانسجام بين سور القرآن الكريم وآياته من جهة ودراسة المناسبة بين الآيات والسور من جهة أخرى، وهذا ما أفضى إلى الكشف عن الرابط الاعجازي بين آي القرآن الكريم. إنه النظم، وليس أي نظم.

فرق الباقلائي بين جمالية أسلوب نص القرآن وجمالية أسلوب الشعر في كتابه "إعجاز القرآن من خلال تمكن القارئ من البلاغة وتذوقه لجمالية أسلوب الشعر" أن يميز سبك أبي نواس، من سبك ابن الرومي... ولا يخفى على أحد أن يميز شعر الأعشى وشعر امرئ القيس، وبين شعر النابغة وزهير، وبين شعر جرير والأخطل فلكل منهم منهج معروف وطريق مألوف¹¹

والملاحظ أن الباقلائي يربط جمالية أسلوب الشعر بالتذوق الذي يعتمد على المتلقي الخبير والمطلع على القيم والمميزات العامة للقصيدة العربية عبر التاريخ، وبالتالي الاحتكام إلى خواص التمييز بين السبك من شاعر لآخر ومن زمن إلى آخر كما يحيلنا إلى فكرة الربط بين أسلوب الشاعر واستعمالاته البلاغية والتحسينية بالموضوع الذي يتناوله فأسلوب المدح غير أسلوب الهجاء مثلا، وهكذا يمكن لنا أن نكشف على التصنع والتكلف في أسلوب الشاعر والذي يسميه الباقلائي مخيال الإستيحاش "اي ما لا يستساغ ولا يمج.

أما أسلوب جمالية النص القرآني، فهو يسير على سنن ونمط متجانس دونما اختلال أو اضطراب أو تفاوت بين سورة وسورة وبين آية وآية وقصة وقصة. ويصرح الباقلائي "بأنه لا مزية للفنون البلاغية من طباق وجناس واستعارة وتشبيه وكناية وقسم ونداء... إلا من خلال نظمها وسياقها الذي سلكت فيه، فلا يمكن أن يقال: إن الطباق بنفسه معجز، أو الاستعارة لذاتها معجزة أو التشبيه بانفراده معجز. أما إذا نظر إلى هذه الفنون في سياقها ونظمها القرآني البديع العجيب، الذي لا يدانيه نظم فعندئذ يقال: إنها معجزة بنظمها وسياقها وتركيبها، الذي سما إلى الطبقة العليا من طبقات البلاغة." وإنما ننكر أن يقول قائل "إن بعض هذه الوجوه¹² بانفرادها. قد حصل فيه الإعجاز، من غير أن يقارنه ما يصل به من الكلام، ويفضي إليه، مثل ما يقول إن ما أقسم به وحده بنفسه معجز،

¹¹. أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي. 1972م. ص210.

¹². يريد بالوجوه. فنون البلاغة ومسائلها.

وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة، فأما الآية التي فيها ذكر التشبيه، فإن ادعى إعجازها لألفاظها ونظمها وتآليفها، فإني لا أدفع ذلك، وأصححه، ولكن لا أدعي إعجازها لموضع التشبيه.¹³ "وبذلك ينكر الباقلائي إعجاز النص من سحر البيان متفردا وإنما يكون الإعجاز في النص القرآني بإقرآن وجه البيان بما يتصل من الكلام على وثيرة التآلف والتجانس ومن صنف التماسك والترابط في نسج النظم.

وما النظم عند الباقلائي إلا اجتماع اللفظ ومعناه في وحدة عضوية يميزها التوافق والتآلف والتماثل في الحسن والأداء في ظل مراعاة سياق الحال حين قال: "إذا برع اللفظ في المعنى البارع على ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر والأمر المتقرر المتصور."¹⁴

والباقلائي في موقفه من ثنائية اللفظ والمعنى يبدو متأثرا بالجاحظ حين أشار إلى مشكلة اللفظ لمعناه حسب مقتضى الحال فقال: "التلاؤم حسن الكلام في السجع وسهولته في اللفظ ووقعه في القلب."¹⁵ وما التلاؤم إلا من باب المشاكلة، ومن خصائص الكلام الحسن الفصيح ومن وجوه النظم المعجز الذي يعتمد على وحدة النص.

وإعجاز القرآن في نظمه عند الباقلائي لا يضاهيه إعجاز بشري كيفما كان حين قال: "فأما شأن نظم القرآن فليس له مثال يحتدى إليه، ولا إمام يقتدى به، ولا يصح وقوع مثله اتفاقا، كما يكون للشاعر البيت النادر، والكلمة الشاردة، والمعنى الفذ الغريب والشيء القليل العجيب."¹⁶ ونخلص في النهاية أن الباقلائي اعتمد في تفسيره لإعجاز القرآن الكريم على النظم الذي يراه تآلفا وتوافقا والتحاماً بين الألفاظ والمعاني وبين مفردات النص في تركيبها وترتيبها حسب ما يقتضيه الحال وتستدعيه المناسبة وقواعد النحو والبلاغة.

ب. موقف القاضي عبد الجبار من الإعجاز القرآني:

¹³. الباقلائي. ص 276.

¹⁴. الباقلائي. إعجاز القرآن. ص 42.

¹⁵. المؤلف السابق. ص 270.

¹⁶. الباقلائي. ص 83.

خص القاضي عبد الجبار. الجزء السادس عشر من كتابه "المعني في أبواب التوحيد والعدل" لإعجاز القرآن الكريم، ولم يتعرض لدراسته مباشرة، بل قدم له بمباحث كثيرة طغى عليها الطابع الكلامي.

يستحضر القاضي عبد الجبار رأي شيخه أبي هاشم الجبائي في تمايز وتفاضل نص القرآن الكريم عن غيره من كلام العرب شعرا أو نثرا في فصاحته المتأتية من جزالة اللفظ وحسن المعنى حيث قال: "قال شيخنا أبو هاشم: إنما يكون اللفظ فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه، ولا بد من اعتبار الأمرين..."¹⁷ وهنا نلمس تساوي اللفظ بمعناه كشرط في فصاحة الكلام وهو من رأي المعتزلة. ثم يعرض ويتراجع القاضي عن تبني رأي شيخه بالعودة إلى صواب التفاضل الذي يرجعه إلى النظم والتألف في حد ذاته حيث قال: "وأعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضع التي تتناول الضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع.. ولا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض."

18

فهو يرى أن الفصاحة لا تظهر في الكلمات المفردة، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، حيث ينبغي أن يراعى ويلاحظ عند الضم ما يلي:

1. يلاحظ أبدال الكلمة ونظائرها، ويختار منها ما يلائم المقام ويناسب المعنى، فلكل كلمة دلالة لغوية، وصفة لا تكون لأخرى، ولا يمكن إغفال ذلك عند النظم.
2. ينبغي أن يلاحظ الموقع الذي ستقع الكلمة، فإن وقوعها فاعلا غير وقوعها مفعولا، أو حالا، أو ظرفا، إذ يتغير معنى الكلام بتغير هذا الوقوع.
3. ينبغي أن يلاحظ موقع الكلمة من التقديم والتأخير.¹⁹

نخلص في النهاية إلى أن القاضي عبد الجبار قد أقام نظريته على أمرين اثنين: أولهما أن يكون للفظ المفرد صفة بالمواضع، أي يحمل معنى ذاتي يتم اختياره على إثره ليضم إلى غيره. وثانيهما أن

¹⁷. المؤلف السابق. ص 197.

¹⁸. المؤلف السابق. ص 199.

¹⁹. د. بسيوني عبد الفتاح فيودا. 1431هـ - 2009م. ص 244.

يضم اللفظ لغيره مع مراعاة حسن موقعه وجمال شكله، فالكلمة عنده فصيحة والمزية في "الإبدال الذي تختص به الكلمات، أو التقدم أو التأخر الذي يختص بالموقع أو الحركات التي تختص بالإعراب بذلك تقع المباينة ولا بد في الكلامين اللذين أحدهما أفصح من الآخر أن يكون إنما زاد عليه بكل ذلك أو بعضه".²⁰ فيكون الإعجاز عنده قائما بالتفاضل في نظم الألفاظ وضمها وليس من تفاضل في المعاني، وهو بذلك يقف مؤيدا للجاحظ في نظرتة للمعاني المطروحة في الطريق.

لقد وفق القاضي عبد الجبار في تحديد ماهية النظم، ووظيفته النصية حين تحدث عن حركات الإعراب ودورها في توزيع الأدوار على أركان الجملة بالاحتكام إلى قواعد النحو المعيارية وبالتالي تحقيق الجانب الشكلي (السطحي) لجمل النص القرآني وحديثه عن دور التقديم والتأخير في الجملة وما له من علاقة سياقية دلالية. إلا أنه انشغل بالخوض في المنهج الكلامي حين تحدث عن نظم القرآن وفصاحته إلى درجة أنه نهج فيه نهجا نظريا أكثر منه تطبيقي.

ج. جهود عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) اللسانية النصية:

اعتمد عبد القاهر الجرجاني في تحليل الكلام على توجه عقلي مسبق وأسس معرفية واضحة تيسرت له باعتقاد مطلق مفاده أن "فضايا العقول هي القواعد والأسس التي ينبني غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها"²¹ فنجح في تطوير فكرة "النظم" واتخذها سبيلا إلى تحليل أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز معا.

. وقد استفاد عبد القاهر من جهود سابقه من أمثال الجاحظ والباقلاني والقاضي عبد الجبار وغيرهم²² في تحديد مفهوم النظم وإرساء أسسه من جهة وربطه بالإعجاز القرآني من جهة أخرى. فكيف عرف النظم؟ وما بيان المزية فيه؟ وما علاقته بالإعجاز القرآني؟

انطلق عبد القاهر من ثنائية اللفظ والمعنى وما ترتب عنهما من مبالغات في تفضيل الواحد عن الآخر، وكانت من أبرز المسائل التي اعتنى بها في كتابيه، وكيف لا واللفظ والمعنى أساس الظاهرة اللغوية، وجوهر الكلام من حيث تألفهما وتوافقهما في المفردة الواحدة أو أكثر من ذلك تركيبا.

²⁰. القاضي. ص200.

²¹. عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني. 1972م. ص345.

²². أمثال : الرماني (ت386هـ) و الخطابي (ت388هـ).

توصل الجرجاني إلى أن وحدات اللغة ألفاظ، وبفضل النحو نستعمل الألفاظ لنشكل التراكيب، وهي تتجدد دائما بفضل النحو ولإعادة تراكيبها، وبالتالي فالألفاظ عند الجرجاني رموز للمعاني، والإنسان يتعرف على مدلول اللفظ المفرد أولا، ثم يتعرف على مدلوله داخل التركيب فالألفاظ سمات لمعانيها، ولا يمكن أن تسبق الألفاظ معانيها "وهل كانت الألفاظ إلا من أجل معانيها؟ وهل هي إلا خدم لها؟ ومصرفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها، وأوضاع قد وضع لتدل عليها؟ كيف يتصور أن تسبق المعاني أو تتقدمها في تصور النفس وإن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء، وقبل أن كانت، وما أدري ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال، وردية الأحوال." 23

أكد عبد القاهر أهمية المعنى من خلال ما أثبتته في أن البلاغة لا يمكن أن تكون إلا في المعنى دون اللفظ، وبالتأليف دون اللفظة المفردة من خلال عملية تأويل النص الأدبي. " ولقد لمس الجرجاني هنا، وإن لم يصغ ذلك صياغة واضحة، أهم خاصية من خصائص الوظيفة الأدبية حسب أحدث النظريات الغربية المعاصرة في النص وهي نظرية تذهب إلى اعتبار التأويل من مميزات ظاهرة الأدب لأن التراكم مبدأ التشابه 24 وهو من مميزات محور الاستبدال، على التلاصق 25، يخلق في النص ضربا من الكثافة المعنوية والإشكال فتمكن قراءته بصورة مختلفة، يقول الجرجاني: "واعلم أن الفائدة تعظم في هذا الضرب من الكلام إذا أنت أحسنت النظر فيما ذكرت لك من أنك تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة من غير أن تغير من لفظه شيئا أو تحول كلمة من مكانها إلى مكان آخر، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد وتأويلين أو أكثر ويفسرون البيت الواحد عدة تفاسير." 26

لقد استعمل الجرجاني لفظة التعليق ليشير إلى التأليف والصياغة والبناء والوشي والتخبير والنسخ بين أجزاء الكلم كلها ألفاظ من جنس التماسك والانسجام الواقع في الكلام الواحد الناتج عن تعالق معانيه بتناسق ألفاظه بعضها ببعض داخل مقام مشترك لا ينبو من فرقة.

23. الجرجاني.. 1969م. ص 379.

24. SIMILARITE.

25. CONTIGUITE.

26. الجرجاني. ص 286.

وأدرك الجرجاني أن الألفاظ لا تفاضل بينها من حيث أنها ألفاظ مفردة منفصلة، بل التفاضل يحدث عند ملائمة معناها لمعنى اللفظة التي تليها في السلسلة اللغوية وهذا يجري على سائر الكلام وتحدث المزية كلها فيه.

كما أدرك أن ترتيب الألفاظ في النطق يجري على ترتيب المعاني في النفس، وأن العملية فكرية محضة وتتم في نفس الوهلة حين تخرج في صورة أدبية بليغة وتامة البيان.

حدد الجرجاني معاني الألفاظ التي يولدها السياق، داخل الصياغة اللغوية من خلال ما صرح به فيما يلي: "ينبغي أن ينظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناه الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به." ²⁷ ويمكننا حصرها فيما يلي:

1. ينبغي أن ينظر إلى كلمة قبل دخولها في التأليف = المعنى المعجمي (الكلمة المفردة).
2. وتؤدي في الجملة معنى من معاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة = المعنى الوظيفي (معاني النحو + سياق المقام + الأسلوب + الوزن... إلخ).
3. هل يتصور أن يكون بين اللفظين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه أدل على معناها الذي وضعت له من صاحبها على ما هي موسومة به = المعنى الدلالي. (وهو المعنى الحاصل الذي يصل إليه القارئ جملة واحدة).

كما يمكننا أن نعبر عنها بالمعادلة التالية:

المعنى المعجمي + المعنى الوظيفي = المعنى الدلالي.

وهنا يحصل التفوق والإبداع والتميز عند الجرجاني في نظريته إلى المعنى عن سابقه من البلاغيين والنحويين.

لم يكتف عبد القاهر الجرجاني بتحديد مصدر المعنى الدلالي، بل تعداه إلى ما وراء الدلالة حين تحدث عن المعنى ومعنى المعنى فقال: "المعنى ومعنى المعنى، نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر

²⁷. الجرجاني ص 47.

اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر. "28". "فالمعاني الأولى هي التي تفهم من نفس الألفاظ، والمعاني الثانوية هي التي يوماً إليها بتلك المعاني." "29"، فيلخص المعنى الدلالي == معنى المعنى.

فالصورة الأدبية لا تخلو من معاني المعاني، ويمكن إدراكها من خلال المجاز كالكناية والاستعارة والتشبيه والتمثيل حيث لا تكون الدلالة على الغرض من اللفظ مجرداً، ولكن لابد من إخضاع المجاز إلى فاعلية النحو من جهة معانيه وما يتعلق بذلك من خصائص. "إن الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنهما يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوفر فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون هاهنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد أُلّف مع غيره، أفلا ترى أنه إن قدر "في اشتعل" من قوله تعالى: "اشتعل الرأس شيباً" ألا يكون الرأس فاعلاً له ويكون شيباً منصوباً على التمييز لم يتصور أن يكون مستعاراً وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة "30

ولقد ربط الجرجاني في عبارته بين النظم والمجاز وأحكام النحو والسياق (التأليف). ويمكننا أن نعبّر عنها بما يلي:

النظم = المجاز (اسم أو فعل دخلته الاستعارة مثلاً) + أحكام النحو (معاني النحو) + السياق (تأليف اللفظ مع غيره).

وما يجري على الاستعارة يجري على غيرها من أساليب المجاز.

وتحدث الجرجاني عن أحكام النحو، وعن النظم. فما هي أحكام النحو؟ وما هو النظم؟

للإجابة على السؤالين نقف عند نص للجرجاني حاول فيه توضيح مفهوم المصطلحين³¹.

يمكننا أن نستخلص ما يلي:

1. النظم هو وضع الكلام حسب ما يقتضيه علم النحو. من قوانين وأصول ومناهج.

2. وقوانين النحو وأصوله ومنهاجه هي: الخبر. الحال. الفصل والوصل. التعريف. التنكير

التقديم التأخير الحذف التكرار الإضمار والإظهار. أدوات الشرط والجزاء ولا يقصد الجرجاني بالقوانين

²⁸. الجرجاني ص: 262. 263.

²⁹. المؤلف السابق. ص: 263. 264.

³⁰. المؤلف السابق. ص: 261.

³¹. الجرجاني. ص: 65. 64.

والأصول الحركات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلمات، لأنها لا تؤدي وظيفة في المعنى، ولا يقع لأجلها التفاضل "ومن العجب أنا إذا نظرنا في إعراب وجدنا التفاضل فيه محالاً لأنه لا يتصور أن يكون للرفع والنصب في الكلام مزية عليهما في كلام آخر..."³²

والنظم عند الجرجاني يأخذ منحى عقلي عند تناوله للعلاقات الدلالية "ليس الغرض بنظم الكلم أن توات ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل."³³ فتناسق الدلالات وتلاقي المعاني في الكلام لا يمكن تفسيره عند الجرجاني إلا بالطريقة الموالية "تبلور الأفكار في النفس وانتظامها انتظاماً نظرياً مجرداً حسب مقولات الفكر، ثم بروز الحاجة إلى الرموز والعلامات لأن الفكر لا يلتبس بالفكر، والجوهر لا يدل على الجوهر فتستبدل المعاني المجردة بالسمات والعلامات الدالة عليها، ثم ترتب هذه العلامات على النسق الذي ترتب حسب المعنى في النفس."³⁴ وبهذا ينطبق اللفظ بالمعنى وتكون الملاءمة بينهما حاصلة والمزية كلها.

وكتاب "دلائل الإعجاز مدونة واضحة المعالم والمفاهيم، في علم النص الحديث" وعلى هذا الأساس رأى بعض الباحثين إمكانية إدراج نظرية النظم ضمن أحد النماذج اللسانية الحديثة وبالتدقيق "داخل إطار توليدي بالخصوص النماذج التوليدية القائلة بقاعدية المكون الدلالي" لأنهم وجدوا في نصه السابق ما يدل على أنه يميز بين مستويين:

1. مستوى عميق غير مشتمل على المعاني الدلالية.

2. مستوى سطحي منطوق يتم فيه نظم المقال على مرحلتين:

أ - مرحلة تستبدل فيها المعاني العميقة بالألفاظ القاموس.

ب - ومرحلة تعلق فيها هذه الألفاظ بعضها ببعض حسب قواعد التركيب.³⁵ وبقيننا أن ما

خلفه الجرجاني خطرات لسانية لا يحترز من تباينها اللسانيون المعاصرون..."³⁶

³². الجرجاني. ص: 306.

³³. الجرجاني. ص: 41. 40.

³⁴. حمادي صمود. 2010م. ص: 454.

³⁵. أحمد المتوكل، 1976. ص: 87. 96.

³⁶. حمادي صمود. ص: 454. 455.

ومنه فإن للنظم دور في هندسة الكلام وترتيبه لا بد من قياس أبعاده وحسابها وتقديرها وتخطيطها، بملائمة ألفاظه لمعانيه ومراعاة غرضه وسياقه بحسب ما تقتضيه أساليب الكلام والذوق إلى أن يصل الكلام أعلى درجات النظم في هندسته وذلك هو الإعجاز، الذي بحث في منشأه الجرجاني وكان سببا لكل ما قدمه من جهود في دراسة الكلام بين النحو والبلاغة.

ويحق لنا وصف أعمال البلاغيين بالبحوث النصية، ويتقدمهم عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ). من خلال نظرية النظم التي وجه فيها اهتمامه وعنايته إلى النص انطلاقا -طبعاً- من الجملة التي تعد نواة لبنيته الكبرى في معالجة كثير من المباحث كالإيجاز والوصل والفصل... أين كان يشير إلى ترابط الجمل وتماسكها. وفي الحقيقة إن نظرية النظم هي ما يطلق عليه اليوم نحو النص.³⁷

الخاتمة:

توصلنا في هذا البحث إلى:

1. أن علماء العرب تناولوا الدرس اللساني، واهتموا بكل جوانبه وحيثياته، بالخصوص ما تعلق بالكلام.
2. وتنبهوا إلى علاقة اللفظ بالمعنى وما تستوجه من مشاكلة بينهما حسب ما يقتضيه الحال وتستدعيه المناسبة وقواعد النحو والبلاغة.
3. وقد أطلقوا عليه بـ "النظم"، والذي اعتمدوا عليه في تفسير اعجاز القرآن الكريم اللغوي.
4. وإن ما قدموه من مباحث في كتبهم الجليلة على اختلاف أنواعها من نحو وبلاغة ونقد وتفسير لنص القرآن الكريم، في غاية الأهمية من حيث المنهج والمادة العلمية، بل تذهب بنا إلى ما يقدمه اللسانيون في "نحو النص" في اللسانيات الحديثة.

³⁷ - ملياني محمد. ص: 51.

المصادر والمراجع:

1. أبو موسى محمد محمد. 1422هـ - 2012م. قراءة في الأدب القديم. مكتبة وهبة للطباعة والنشر. القاهرة.
2. الأسد أبادي أبو الحسن عبد الجبار القاضي. المغني في أبواب التوحيد والعدل. تحقيق محمد مصطفى حلمي وأبو الوفا الغيمي. مراجعة: إبراهيم مذكور. اشراف: طه حسين. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
3. الباقلاوني أبو بكر محمد بن الطيب. 1972م. إعجاز القرآن. تحقيق السيد أحمد صقر، ط3، مصر.
4. الجابري عايد. بنية العقل العربي - دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. مركز دراسات الوحدة العربية.
5. الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد.
- 1969م. دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق عبد المنعم حفاجي. مكتبة القاهرة.
- 1972م. أسرار البلاغة. تحقيق: عبد المنعم حفاجي. مكتبة القاهرة.
6. حمادي صمود. 2010م. التفكير البلاغي عند العرب. أسسه وتطوره إلى القرن السادس. دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت. لبنان.
7. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر. 1376هـ - 1957م. البرهان في علوم القرآن. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار احياء الكتب العربية. عسى البابي الحلبي وشركاءه.
8. سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. 1966م. الكتاب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. دار القلم. القاهرة.
9. فيود بسيوني عبد الفتاح. 1431هـ - 2009م. قراءة في النقد. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
10. المتوكل أحمد. 1976م. نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني، ضمن لسانيات وسيميائيات. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

المقالات

1. ابرير بشير. مفهوم النص في التراث اللساني. مقال. مجلة جامعة دمشق. المجلد: 23. العدد الأول.
2. بودرع عبد الرحمان. 2013. في لسانيات النص وتحليل الخطاب: نحو قراءة لسانية في البناء النصي للقرآن الكريم. بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتطوير الدراسات القرآنية.
3. ملياني محمد. من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص. مقال. مجلة الترجمة واللغات. المجلد: 9. ص: 51.